## عن العولمة والثقافة

أحياناً تكون إعادة توكيد المعنى الخاص بمصطلح معين، لغاية التمييز بينه وبين مصطلح آخر قريب منه في النطق وفي بعض جوانب الدلالة، أمراً يأخذ سمة الضرورة، خصوصاً حين تتصف ثقافة ما كالثقافة العربية الراهنة بأنها تعاني من أزمة تسمى (أزمة المصطلح) التي تعكس- بدورها- جوانب أساسية لأزمة كبرى في هذه الثقافة.

قلت قبلاً: إن مصطلح (العولمة) في اشتقاقه العربي هو الأكثر دقة في الدلالة على أصله الغربي من حيث منشؤه الفلسفي ومن حيث أهدافه. إنه يتضمن معنى القسر والإخضاع لحال واحدة أُحادية الاتجاه في أوضاع (الكل العالمي) وعلى مختلف المستويات، وتلك الحال المرتبطة بمعنى القسر والإخضاع ليست شريفة الأصل أو الأسلوب التنفيذي وليست نظيفة الهدف والغاية. أما مصطلح (العالمية) ومصطلح (الكوكبة) اللذان يستعملان بكثرة لدى مثقفينا كبديلين لمصطلح (العولمة) أو كمرادفين له ومتوازيين معه في الدلالة، فإن أولهما- ونحن دائماً نتحدث عن المدلول للاشتقاق العربي هنا- محمل بنوع من البراءة والنظافة في الأصل والمقصد، وبمخاتلة دلالية توهم القارئ بأن (العالمية = العولمة) مطلب للبشرية منذ بدء الحضارة، وتثير لديه ترابطات زائفة مع فكرة (الأممية) لدى الشيوعية في فترة ما يسمى (الحرب الباردة)... إلى آخره. بينما

(الكوكبة) مصطلح محمل بالشكلانية- فوق البراءة والنظافة!- حيث تبدو المظهرية فقط بخصوص (وحدة الكوكب)، عدا الارتكاسات الأخرى التي تؤكد على حتمية وحدة العالم- وبأسلوب العلولمة- وعلى التضافر والتكامل في هذه الوحدة... وكلها ارتكاسات زائفة.

ثمة إذاً (عولمة) وحسب، مطروحة (كبرنامج عمل) غائي لحلف من القوى الكبرى، هو كما نرى (الحلف الأميريكي الصهيوني)، والصهيونية منظور إليها هنا (كقوة كبرى) بحكم امتلاك اتباعها لنسبة ضخمة من رساميل العالم، وبحكم تغلغل تلك الرساميل في نسيج البنيان الرأسمالي الغربي- الأميركي خصوصاً- ومقدرتها بالتالي على التأثير في حركته بقوة وفي صياغة برامجه المرحلية وتحديد غاياته النهائية.

وإذا كان يجب ألا يفوتنا أمر أن (الدرس الحضاري) للرأسمالية الغربية منذ نشوئها تحرك- بكل مستجراته- على أرضية ثقافية معرفية فلسفية خاصة لخصتها عبارة (المركزية الأوروبية) التي تمحورت على ادعاء (معجزتين كبريين) في التاريخ هما: المعجزة الإغريقية في الفلسفة والعلوم والتجارة وتنضاف إليها عبقرية الرومان العسكرية... والمعجزة التوراتية الدينية ومستجراتها.. فإنه يجب ألا يفوتنا أيضاً ما استجد، في العقد الأخير من القرن العشرين، من إضافات فكرية وتغيرات معرفية وفلسفية قد لا تكون إلى تجديداً متصاعداً لما كان قبلاً، أو لما ظل يُموَّه على أنه ثانوي ثم ها هو ذا يوضع صراحة في رأس قائمة الأولويات بالنسبة للتوجهات العولمية وأصحابها، وأعني بهذا- وبشكل خاص جداً- أطروحات صموئيل هينتنغتون عن (وجوب!!) أن يقوم الغرب (الانغليكاني/ الكاثوليكي) بتصفية

الحضارتين الإسلامية والكونفوشية (أي الصينية) أولاً، لأنهما تمتلكان سمات وقيماً متشابهة خطرة، ثم تصفية المسيحية الأرثوذكسية الشرقية فالهندوسية والبوذية، كيما يحرز هذا الغرب انتصاره العالمي النهائي الكامل الشامل!... وهذا تلخيص مبسط جداً ومكثف جداً لنظريته عن (صراع الحضارات) التي جعلها حضارات دينية يشكل بقاؤها خطراً على (الانغليكان أساساً) واليهود ضمناً- وهو بالمناسبة لم يذكرهم بشيء في أطروحة الصراع تلك، كأنهما هم فوق الصراع، أو لعل الصراع يجب أن يدور فعلياً من أجل سيادتهم عالمياً في نهاية المطاف- ونحن هنا كأنما نرى روح (الصليبية) في العصور الوسطى مجددة وفق المستجدات الإجمالية في تطور الوضع البشري الراهن!

وتبدو العولمة- على أي حال- آخر النتاجات المحتملة، والتي يجري الإعداد لتحققها عبر صراع غير متكافئ بين القوى العالمية المختلفة، لمسيرة الفلسفة الليبرالية الغربية بمختلف تياراتها خلال بضعة قرون... وخصوصاً تيارات الفلسفة البراغماتية الأميركية المطعمة بقوة على "هراءات" الصهيونية التلمودية، وقد أوضح الدكتور عبد الوهاب المسيري تلك الأسس الفلسفية الليبرالية للعولمة في مقال قيم له بمجلة القاهرة عدد آب ١٩٩٧، إن لم تخني الذاكرة، مثلما أوضح أهدافها التي تبدو لنا تلمودية (بشكل صافٍ!!) كلياً، إذ تنحصر تلك الأهداف- بعد تدمير الهويات الحضارية المتنوعة للبشرية، وسحق هوياتها القومية، وإهدار سيادات دول العالم وشعوبه على أراضيها إهداراً شاملاً- بتسطيح شخصية الكائن البشري التي ستصبح شخصية بلا ذاكرة تاريخية/ حضارية خاصة، أي بلا ثقافة

متمايزة، وتصير أهداف الكائن منحصرة في عملية الإنتاج من أجل الاستهلاك وإشباع اللذات الغريزية البهيمية لديه مع تعزيز مستمر ومتصاعد لتلك اللذات، كيما يتم تطويع البشرية لخدمة طغمة مالية قليلة العدد بشكل مثير للرعب، وقاسية الإدارة للمصائر الإنسانية عبر اللعب الوحشي بالاقتصاد العالمي- مع ما يترتب على ذلك اللعب من تدمير فضاءات القيم الأخلاقية والثقافية والجمالية والرؤيوية التي تمنح المعنى للوجود البشري على الأرض- إلى درجة كارثية.

ويدين المثقفون الأوروبيون- الفرنسيون والألمان- هذه التوجهات العولمية، وأساليب العمل على تحقيق العولمة، إدانة صريحة وقطعية، ويشاركهم كثير من أبرز السياسيين في عملية الإدانة هذه، مثلما فعل الرئيس الفرنسي جاك شيراك صراحة قبل نحو من سنتين. ودائماً تخلُصُ الإدانة إلى قضية (وجوب الحفاظ على التنوع الثقافي الإنساني) بعد استعراض العمليات الأخرى التي تهدف إلى تحطيم كل وعي معارض أو مناقض لدى أفراد وجماعات النوع الإنساني لتلك العولمة المطلوبة من قبل الحلف (الأنغليكاني/ الصهيوني) والذي يبدو-حتى تاريخه- بقيادة أميركا رغم اتفاق أهداف العولمة مع الأطروحات التلمودية الأساسية.

لعله من الواجب هنا أن نشير إلى المؤسسة التي أنشأها السيد (خافيه بيريزدي كويار) الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة، وأتبعها لمنظمة اليونسكو، وحدد أهدافها (بالحفاظ على التنوع الثقافي لمختلف الجماعات البشرية) كرد عملي على العولمة.

وإذا كانت العولمة غير قابلة للتحقق إلا بمحق كل وعي

مناقض لتوجهاتها الوحشية، فهذا يعني محق الثقافات جميعاً على الأرض باعتبارها محصلات حركة التحضر الإنساني منذ ابتدأ قبل نحو من ستين قرناً، واستبدالها جميعاً بثقافة استهلاكية مهلكة، أحادية وكاملة التسطح والبهيمية.

وبالطبع، تتلاعب الطغمة المستفيدة من التوجه إلى تحقيق هذه العولمة السوداء بالإنجازات العلمية في مجالي: الثورة التكنوالكترونية (أي الحواسيب وشبكاتها)، والثورة في الاتصالات الإعلامية (البث المرئي أو التلفزيوني عبر مئات الأقنية البصرية الناطقة) وهذه الأخيرة مرتبطة بالأولى ومتكاملة معها.

ويحق للمرء وهو يقرأ بعض ما يقال أو يكتب عن ذاك التلاعب أن يتساءل:

– كيف يقاوِم مجتمع ما مثل هذا التلاعب القوي من قوى غاشمة مسيطرة على منجزات الثورتين معاً، فلا يتخلف عن التعامل مع منجزات الثورة التكنوإلكترونية وفوائدها من جهة، وكيف يجعل هويته الثقافية القومية محصنة ضد الإلغاء أو التسطيح المضادين لها وله من جهة أخرى؟!

–وكيف يقاوم إغراءات البث المرئي عبر شبكات الأقنية التلفزيونية الموجهة لمحق وعيه ووعي مجتمعه وأمته بالانتماء إلى هوية متمايزة متفاعلة تفاعلاً حراً مع الثقافات الإنسانية جميعاً، باستنباط وإنجاز "أقنية بث" خاصة تقاوم ذلك المحق بديناميكيات جديدة كفؤة، وأساليب وتقنيات مضادة وقادرة على المنافسة؟!

وفي نهاية كل تحليل تبرز قضية الوعي الشمولي الناضج

لقيمة الجهد الإنساني في تحصيل المعرفة التي تحول دون تحقق تلك العولمة السوداء ذات الأهداف الكارثية، وبالتالي تبرز قيمة (الثقافة) كفعالية أساسية جذرية وجوهرية للحفاظ على الوجود البشري خارج القضبان الضيقة التي يخطط لها دهاقين العولمة كي تجعل ذلك الوجود برمته غير ذي قيمة لأصحابه... وتبرز أيضاً قضية مراجعة (الانبهار) بمنجزات التكنولوجيا الجديدة باعتبارها (موضة) بالغة الجاذبية ومريحة بصورة تكاد لا تقاوم!

والقضية في الحاصل الأخير هي قضية الحفاظ على جماليات التنوع الغني للثقافات البشرية برفض الاستسلام للراحة والإغراء المشبوه، وكلاهما مدمر بلا هوادة أو رحمة!

❑❑